٣١

الحديث

من أنواع القدر السابق

عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ - وهو الصادقُ المصدوقُ -:

١ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ،

٢ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ،

٣ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ،

٤ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ،

٥ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ»[١٨٩].

(١٨٩) رواه البخاريُّ (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

آيات

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٥].

الراوي

هو: أبو عبد الرحمن، عبدُ الله بنُ مسعودِ بنِ غافلِ بنِ حبيبٍ، الهذليُّ، صاحبُ رسول الله ﷺ، أَسلَم بمكَّة قديمًا، وهو أولُ من جهَر بالقرآن في مكة، وهاجر الهجرتَين، وشهد بَدْرًا والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحبُ نَعْلِ رسول الله ﷺ، كان يُلبِسه إيَّاها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه، تُوفِّيَ بالمدينة سنةَ (٣٢هـ)، أو (٣٣هـ)[١].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بعضَ مراحل نمو الجنين في بطن أمه ونفخ الروح فيه وكتابة مقاديره.

ثم يذكر ﷺ أن الأعمال بالخواتيم، فربما يعمل الرجلُ بعمل أهل النار مدةً طويلة، ثم يُوفَّق للطاعة والتوبة فيُختم له بخيرٍ فيدخل الجنة، وربما يحدث العكس، فيعمل الرجل بالطاعة، ثم في آخر عمره يعمل بالمعصية فيدخل النار.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٧٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٨٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٩٨).

يروي عبدُ اللهِ بن مسعودٍ ﷺ حديثًا من أمور الغيبِ التي لا يعلمها أحدٌ إلا الله عز وجل، ولهذا قال ابن مسعود في حقِّ النبي ﷺ: «وهو الصادقُ المصدوق»؛ فإننا نؤمن بما يقول ونُصَدِّقه، في كل ما يخبر به.

١ يذكر النبيُّ ﷺ أحوال الجنين ومراحل تخلُّقِهِ في بطن أمه، فيكون نطفة في رَحِمِ الأُمِّ، ثم **يصبح قطعةَ دمٍ متجمدٍ** بعد ذلك، وتُسمى علقة، وسُمِّيت عَلَقةً لأنها تَعْلَقُ في جدار الرحم. ثم بعد ذلك تصير مُضغة، **وهي قطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغ الفم**.

وبعد أن يصبح مضغة يأمر اللهُ تعالى المَلَك المُوَكَّل بالأرحام، فيكتُبُ ما يجري عليه من القَدَر، فيكتب رزقَه وأجلَه وعملَه وشقيًّا أم سعيدًا.

ولا تقتصر كتابةُ المَلَك على تلك الأمور فحسبُ؛ بل إنه يكتبُ جنسَ الجنين ذكرًا أم أنثى، ويُحَدِّد شَكله وأخلاقه وصِفاته؛ ففي الحديث: «إن الله إذا أراد أن يخلُقَ الخلْقَ بعَث مَلَكًا، فيدخل الرحِم فيقول: يا ربِّ، أذكرٌ أم أنثى؟ فيقول: ذكرٌ أو أنثى أو ما شاء الله أن يخلُق في الرحم، فيقول: أيْ ربِّ، أشقيًّا أم سعيدًا؟ فيقول شقيًّا أم سعيدًا، فيقول: أيْ ربِّ، فما أجَلُه؟ ثم يقول: أيْ ربِّ، فما رِزقه؟ ثم يقول: أيْ رب، فما خَلْقه وخَلائِقُه؟ فلا يقول شيئًا إلا فعَلَه في الرحم»[١٩٠]، وإنما ذكر ﷺ تلك الأربع؛ لأهميتها واندراج ما سواها فيها.

وهذه الكتابةُ التي يكتبها المَلَك غير الكتابة التي كتبها اللهُ تعالى عنده في اللوح المحفوظ؛ فقد قال ﷺ: «كتَب اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمواتِ والأرضَ بخمسين ألْفَ سنةٍ، قال: وعرشُه على الماء»[١٩١]؛ فكتابةُ المَلَك قابلةٌ للمحو والتغيير والتبديل، بخلاف ما أثبته الله تعالى في أمِّ الكتاب؛ فإنه لا يتبدل ولا يتغير؛ قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩][١٩٢].

٢ وعندئذ ينفخ الله الرُّوحَ في الجنين فيصيرُ حيًّا بقدرته تعالى، ويحدث ذلك عند اكتمال المضغة وتَشَكُّلِها بشكل الآدمي؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ﴾ [الحج: ٥]؛ فالمُضْغَةُ المُخَلَّقَة هي تامة الخلق التي تشكَّلت على صورة خلق الإنسان، وغير المُخَلَّقة: غير تامة الخلق التي لم تصور وتكون سَقطاً تقذفه الأرحام[١٩٣].

---

(١٩٠) رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢/ ٣٤٤)، والآجريُّ في «الشريعة» (٣٦٥).

(١٩١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(١٩٢) انظر: «شرح الأربعين النووية» لابن رجب (ص: ٤٥)، «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤٨٥).

(١٩٣) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٦/ ٦٥١).

والنَّفْخُ في الرُّوح من الأمور الغيبية التي استأثر اللهُ بعلمها وأخفاها عن خلقه، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، إلا أنَّنا نؤمن بما أخبر ﷺ عن ربِّه تعالَى، ونوقن أنَّه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

٣ ثم أرشد ﷺ إلى أنَّ الأعمال بالخواتيم، وأنَّ العبرةَ بما سبق في علم الله وكتبه على العَبْدِ من الشقاء والسعادة؛ فربَّما عمل الإنسانُ بعملِ أهل النَّارِ زمنًا طويلًا، حتى إذا اقترب أجلُه هيَّأ الله له التوبةَ فيتوب عليه ويختم له بعملٍ صالحٍ فيدخل الجنَّةَ؛ إذ كان اللهُ قد كتب له السعادةَ في اللوح المحفوظ عنده، وفي بطن أمه حين أرسل إليه المَلَك.

٤ وفي المقابل قد يعمل الرجلُ بعمل أهل الجَنَّةِ زمانًا طويلًا، حتى إذا دَنا من الجنَّة بدُنُوِّه من الموت، يسبقُ عليه ما كتبه الله عليه من الشقاء، فيعمل بعمل أهل النَّارِ فيموتُ على ذلك ويكون من أهل النار.

وذلك مِثل مَن يعبد الله عن جهلٍ؛ إن أُعطي شكر، وإن مُنع جحد وكفر، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]. ومَن يعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يبدو للنَّاس؛ ففي ظاهره الصلاحُ والخيرُ وفي باطنه خلافُ ذلك؛ قال ﷺ: «إن الرجُلَ ليعملُ عملَ أهل الجنة - فيما يَبْدو للناس - وهو من أهل النار، وإن الرجُل ليعملُ عملَ أهل النار - فيما يَبْدو للناس - وهو من أهل الجنة»(١٩٤).

وهذا الخَتْمُ بالسُّوء لمَن ظاهرُ أعمالهم الصلاحُ إنما هو من النوادر التي لا تظهر كثيرًا، وحِكمةُ وجودها بيانُ أنَّ الأعمالَ بالخواتيم، وأنَّ الإنسانَ لا يغترَّ بعَمَلِه. وهذا من لُطْف الله سبحانه، وسَعة رحمته؛ فإن انقلاب الناس من الشرِّ إلى الخير كثير، وأما انقلابهم من الخير إلى الشرِّ، ففي غاية الندور، وإلا لَافتتن النَّاسُ بذلك»(١٩٥).

والغالبُ المُطَّرِدُ أنَّ أهلَ السعادةِ يُوفَّقون للعمل الصالح، وأهلَ الشقاء يعملون بعمل الأشقياء من المعاصي والذنوب؛ قال ﷺ: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفْس منفوسةٍ إلا كُتِب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتِب: شقيَّةٌ أو سعيدةٌ»، فقال رجُل: يا رسول الله، أفلا نتَّكِلُ على كتابنا ونَدَع العمل؟ فمَن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما مَن كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: «أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسَّرون لعمل الشقاوة»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٦] الآيَةَ(١٩٦).

---

(١٩٤) رواه البخاريُّ (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

(١٩٥) «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد (ص: ٣٩).

(١٩٦) رواه البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

اتّباع

١ قال ابن مسعود رضي الله عنه في حقّ النبيّ ﷺ: «الصَّادق المصدوق»؛ فمِن كمال الإيمان به ﷺ تصديقه فيما أخبَر، واتّباعه فيما أتى به، حتى وإنْ أخبر بما يخالفُ العقلَ أو ما يَعجِز العقل عن إثباته أو نفيه من أمور الغيب؛ ولهذا كان أصحابُ النبيِّ ﷺ أفضل البشر بعد الأنبياء، وهم قدوةُ المؤمنين في الإيمان بالنبيِّ ﷺ واتباع شرعه.

٢ يُظهِر الحديث حُسن تأدُّب الطالب مع معلِّمه؛ وذلك باعتراف ابن مسعود رضي الله عنه بفضل النبي ﷺ وصدقه.

٣ أخبَر النبيُّ ﷺ بمراحل خلْق الجنين في بطن أمِّه قبل تطوُّر الطب وظهور الأدوات والآلات المتطورة التي أثبتت صِدقَ ما قاله ﷺ، وهذا أمرٌ يَزيد المؤمنَ إيمانًا حين يرى تصديق العلم الطبيعي لِما أخبر به القرآن والسُّنَّة وعدم التناقض بينهما.

٤ ينبغي للإنسان ألَّا يحكُم لأحدٍ بجنَّةٍ أو نارٍ؛ فإنَّ ذلك لله وحده، وهو الذي كتب مصائر العباد، والشقيُّ قد يسعد، والسعيدُ قد يشقى.

٥ على الإنسان ألَّا يركَن إلى عمله ويطمئنَّ إليه ويترك الجِدَّ والاجتهاد؛ فإن الأعمال بالخواتيم. وقد كان سفيان الثوريُّ رحمه الله يَبكي ويقول: «أخاف أن أكون في أمِّ الكتاب شقيًّا»، ويقول: «أخاف أن أُسلَب الإيمانَ بعد الموت»(١٩٧).

٦ على المسلم أن يداوِم على دعاء الله تعالى أن يثبِّته على طاعته، وألَّا يُضِلَّه ويُزِلَّ قَدَمه، وقد كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول: «يا مُقلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك»(١٩٨).

٧ لو تلمَّس الإنسانُ الحكمةَ من خلق الإنسان طَوْرًا بعد طور، وأن الله سبحانه قادرٌ على أن يقول للشَّيء: كُنْ فيكون؛ فهي تربية إيمانية على التأنِّي في الأمور، وعدم استعجال النتائج، كما أنها توضيح للارتباط الوثيق الذي جعَله الله تعالى بين الأسباب والمسبِّبات، والمقدِّمات والنتائج، ومُراعاة نَواميس الكون في ذلك.

٨ قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «إياكم والاستنانَ بالرجال؛ فإن الرجُل يعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب – لعِلم الله فيه – فيعمل بعمل أهل النار، فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجُل ليعمل بعمل أهل النار، فينقلب – لعِلم الله فيه – فيعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بُدَّ فاعلين، فبالأموات لا بالأحياء»(١٩٩).

(١٩٧) «شرح الأربعين النووية» لابن رجب (ص: ٤٧).

(١٩٨) رواه الترمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجهْ (٣٨٣٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه وقال الترمذيُّ: حديث حسن، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذيِّ» (٢١٤٠).

(١٩٩) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٢/ ١٣٥).

٩ أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ رجلًا قال: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ»، وأنَّ اللهَ تعالَى قال: «مَنْ ذا الذي يَتَأَلَّى علَيَّ أنْ لا أَغْفِرَ لفُلانٍ؟! فإنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[٢٠٠].

قال الشاعر:

لله فـي الآفَـاقِ آيَـاتٌ لَعَـلْ ... لَ أَقَلَّهَـا هُـوَ مَـا إِلَيْـهِ هَـدَاكَ
وَلَعَـلَّ مَـا فِي النَّفْـسِ مِـن آيَاتِـهِ ... عَجَـبٌ عُجَـابٌ لَـو تَـرى عَيْنَـاكَ
وَالْكَـوْنُ مَشْحُـونٌ بِـأَسْرَارٍ إِذَا ... حَاوَلْـتَ تَفْسِيـرًا لَهَـا أَعْيَـاكَ
قُـلْ لِلْجَنِـينِ يَعِيـشُ مَعْـزولاً بِـلا ... رَاعٍ وَمَرْعَـى مَـا الَّـذِي يَرْعَـاكَ؟

(٢٠٠) رواه مسلم (٢٦٢١).